الباب الأول

حول مفهوم النظرية السوسيولوجية
مدخل نظرى

المحتويات

تمهيد
الفصـــل الأول : التفكير العلمى ، طبيعته ومكوناته
الفصل الثانى : النظرية السوسيولوجية بناؤها ووظائفها
الفصل الثالث : الاستراتيجيات الأساسية لصياغة
النظرية السوسيولوجية

تمهيد

يشكل تخلق النظرية فى بناء العلم داله على نضج البناء الفكرى واكتماله . وبرغم ان النظرية هى المكون الاخير الذى يكتمل به بناء العلم ، إلا أنها تظل الوحدة القادرة على منح العلم هويته ، والفعالة فى توجيه انجازاته وحركته فى دراسة الظواهر التى تشكل مجال فاعلية العلم وإطار بحثه وادراكه . ويرجع كون النظرية هى الوحدة الأخيرة التى يكتمل بها بناء العلم لعاملين ، الأول أن المراحل الأولى للعلم تتميز بمحاولة تلمس المعطيات المتعلقة بالظواهر الواقعية لادراكها ، والوصول من خلال هذا الادراك إلى مجموعة من التعميمات التى يمكن ان تشكل بعد تجريدها واعادة تنظيمها اساساً لبناء النظرية ، وهو مايعنى أن العلم فى سعيه لاستكمال نظريته ابتدأ من تلمس المعطيات الواقعية وانتهى الى الوصول الى القضايا المجردة . ويتمثل العامل الثانى فى اعتبار امتلاك العلم لقدر من المعرفة التى تشكل كيانه شرطا اساسيا لامتلاكه نظريته ، اذ تعتبر النظرى فى هذا الاطار وسيلة لتنقيح المعرفة ، واعادة تنظيمها وفرض الرمزية عليها . ومن ثم فامتلاك العلم للمعرفة يعتبر الشرط الأساسى والضرورى لامتلاك النظرية التى تعد بصريقة اخرى هى ذات المعرفة ولكن على مستوى أكثر كثافة وأكثر تنظيما .

وحتى يكتمل بناء النظرية ، فاننا نجده يمر عادة بأربعة مراحل تسلم كل منها إلى الأخرى . فى المرحلة الأولى نجد أن الجهد العلمى لعدد من الباحثين فى مجال معين من مجالات العلم يثمر مجموعة من القضايا أو الفرضيات التى يمكن ان تتكامل لتصبح توجهاً أو موقفاً فيما يتعلق بمشكلة واقعية محددة . بحيث يبدأ الباحثون فى الاستشهاد بهذه القضايا حين تناول ظواهر أو مشكلات مماثلة سراء فى عمليات الوصف أو التحليل أو التفسير لهذه القضايا ، وقد يستغرق الباحثون فترة طويلة فى اختبار هذه القضايا واعادة اختبارها وصياغتها حتى تصبح صالحة أو مؤهلة لتكون وحدة مكونة فى أى من الأبنية النظرية التى قد تتشكل .

فإذا تكاثرت القضايا ، واذا تجانس المجال الواقعى الذى تجرد عنه هذه القضايا ، فإنها تنتظم لكى تشكل نموذجاً نظريا يؤسسه باحث مبدع ، لكى يستخدمه فى عمليات البحث التالية أو يستخدمه الآخرون ، أو يؤسسه باحث تأسيسا اراديا ومؤقتا كى يستفيد منه فى عمليات تنظيم المادة الواقعية وتحليلها وتفسيرها بما يبرز مجموعة من القوانين الحاكمة لها . غير ان هذا الجهد من شأنه اذا تكرر من قبل عدد من الباحثين فإنه يؤدى الى نتيجتين ، الأولى اعادة إختبار قضايا النموذج النظرى بما يحدد الثقة فى كفاءتها العلمية ، والثانية استيعاب

النموذج النظرى لقضايا جديدة فى بنائه بما يساعد على توسيع نطاقه والاقتراب من نقطة التحول من نموذج نظرى الى نظرية علمية ، وهو مايؤكد القول الذى يذهب الى التأكيد بأن النموذج النظرى يشكل قنطرة العبور الى النظرية العلمية .

وبتكاثر النماذج العلمية على خريطة العلم فإنه يعتبر دالة على كثافة الجهود العلمية والبحثية التى تبذل فى نطاق العلم ، وأيضا على بداية التفاعل بين النماذج النظرية المختلفة ، بحيث يؤدى هذا التفاعل عادة الى تولد نماذج جديدة ، غير ان هذه النماذج على كثافتها ، وقدرة تكاثرها ، مازال كل منها قادر على ادراك وفهم أى من جوانب الواقع الاجتماعى . واذا كانت النماذج النظرية تشكل على هذا النحو مجموعة من الجزر المنعزلة التى قد تعكس بعض جوانب الواقع غير أنها تعجز عن تصويره وادراكه فى كليته . فإننا نجدها - كإتجاه عام - تتجه نحو الاتصال ببعضها البعض ، وهذا الاتصال الذى يسلم عادة الى أى من الأبنية النظرية سواء كان البناء النظرى - التى اسلمت اليه - من نوع النظريات المتوسطة المدى أو البعيدة المدى .

فإذا اتصلت مجموعة من النماذج النظرية بعضها البعض لتشكل بناءاً نظريا أكثر شمولا ، فإن ذلك من شأنه ان يقود مجموعة اخرى من النماذج لتشكل هى الأخرى نظرية اخرى ، مناظرة ، أو بديلة ، أو حتى مناقضة للنظرية الأخرى . وهنا نجد ان العلم قد دخل مرحلة جديدة تماماً هى مرحلة النظريات المتعددة أو المدارس الاجتماعية ، التى تحتوى كل منها على عدد من النظريات التى تتميز بطبيعة واحدة ، كالمدرسة الوظيفية التى تضم نظريات دوركيم ، وبارسونز ، وميرتون ، أو مدرسة الصراع التى تضم النظرية الماركسية . والماركسية المحدثة ، اضافة الى نظرية رالف دارندورف ، ولويس كوزر ، أو المدرسة النقدية التى تضم نظريات كل من ماكس هوركهايمر ، وتيودور أدورنو ، وهربرت ماركيوز وجيرجون هابير ماس ، إضافة الى س . رايت ميلز . وفى مرحلة المدارس أو النظرية المتعددة ، فإننا نجد أن كل نظرية من هذه النظريات تحاول من خلال البحث الواقعى والميدانى ان تعيد اختبار قضاياها ، لتطور هذه القضايا وتوسع فى ذات الوقت من نطاق بنائها النظرى ليستوعب قضايا من النظريات الأخرى أو المقابلة كما فعل روبرت . ك . ميرتون حينما حاول دعم نظريته الوظيفية حينما استعار بعض المفاهيم الأكثر تجانساً مع منظورات الصراع ، كمفهوم التناقض ، ومفهوم الأداء الوظيفى المعوق ، والأداء الوظيفى المتعدد ، والوظائف البديلة والوظائف الكامنة ، بحيث جعل الاتجاه الوظيفى أكثر قدرة على تناول قضايا الصراع والتغير . أو مافعله منظروا المدرسة

النقدية ، وبخاصة منظروا مدرسة فرانكفورت ، حينما اتجهوا الى استخدام ادوات البحث الامبيريقى أو الميدانى ، وهى الأدوات التى طورها علم الاجتماع الغربى . اضافة الى ذلك تحاول النظريات المختلفة خلال هذه الفترة اثبات زيف قضايا النظريات الأخرى أو المضادة ليس من خلال منطق ايديولوجى ، ولكن من خلال ممارسة علمية ، وذلك مثلما فعل س . رايت ميلز فى انتقاداته للبارسونزية ، أو حينما فعل تالكوت بارسونز حينما حول البرهنة على رؤية ماركس المختزلة للصراع .

ونحن الآن على أعتاب المرحلة الرابعة . حيث الساحة فى علم الاجتماع ممتلئة بعديد من النظريات التى تمتلك تصورات مختلفة للواقع ، يصل اختلافها احيانا الى حد التناقض . ومن المنطقى ان يساعد الجدل والحوار بين هذه النظريات المتعددة الى الوصول الى النظرية العامة أو الشاملة للعلم ، بحيث يرمز ذلك الى تعميد علم الاجتماع كعلم بين العلوم .

ومن المعتقد انه قد بذلت محاولات متنوعة من اجل الوصول الى الالتقاء بين هذه النظريات العديدة والمتنوعة . وقد تجلت هذه المحاولات من خلال استراتيجيات متنوعة . تمثلت أولها فى البحث عن مناطق الالتقاء فى هذه النظريات ومحاولة صياغة تكامل بينها ، لتخليق بناء نظرى جديد يضم أفضل مابهذه النظريات المتعددة احد هذه الآليات كمحاولة التأكيد على التكامل بين الصراع الذى تقول به الماركسية والتوازن الذى تؤكد عليه الوظيفية فى اطار صياغة نظرية جديدة كتلك التى قال بها فان دنبرج ، أو ن . ج . دى ميراث . غير ان الخطأ الذى يكمن فى هذه الاستراتيجية يتمثل فى محاولة جمع قضايا تعكس رؤية مستقطبة ومتطرفة للحقائق ، ومحاولة دمجها صوريا مع بعضها البعض وعلى الرغم من إمكانية هذا الدمج الصورى ، إلا انها سوف تظل عاجزة امام تنوع التفاعل الواقعى ، الذى قد يقع اغلبه فى منطقة الوسط وليس على مواضع الأطراف .

وتعتبر النزعة التوفيقية الاستراتيجية الثانية ، حيث تحاول هذه النزعة التأكيد على مواضع الالتقاء أو الميل إليه بين النظريات العديدة ، إذ تؤكد هذه المحاولة على المواضع التى يمكن التوفيق بينها ، وهى عادة القضايا التى تقع على هامش بناء النظرية أكثر من التأكيد على القضايا المميزة للنظرية أو تلك التى تكسبها طبيعتها . كالقول مثلا بأنه برغم تأكيد الماركسية على الصراع إلا أنها يمكن أن تطور تصوراً للتوازن كذلك ، وانه اذا كانت الوظيفية الأنثروبولوجية أو الوظيفية فى مراحلها الأولى قد أكدت على مفاهيم التوازن والاستقرار ، فإن الاتجاه الوظيفى فى علم الاجتماع فى مراحله الاخيرة وبخاصة فى نطاق المجتمعات الصناعية

قد استطاع ان يطور تصوريا لظواهر الصراع والتغير ، بحيث تتكامل هذه التصورات مع القضايا المؤكدة على التوازن داخل هذا الاتجاه ، بيد أننا نجد أن هذه الإستراتيجية تغفل القضايا المحورية داخل هذه الأبنية النظرية ، اضافة الى كونها تتجاهل الأصول الابستمولوجية المتباينة لأى من هذه النظريات .

على خلاف ذلك تتمحور الاستراتيجية الثالثة حول سعى الباحثون فى مختلف النظريات نحو تطوير أطرهم النظرية بحيث تشكل هذه الأطر النظرية محور النظرية الشاملة لتى تشكل وعد علم الاجتماع . وهم فى ذلك يمارسون آليات متنوعة ، أبرزها اخضاع قضايا النظريات المضادة أو المقابلة لعمليات التأمل التحليلى والمنطقى وكذلك لمعطيات الواقع الامبيريقى ، لتحدد ماهو صادق بها ، وما تجاوزه الواقع ، ثم بعد ذلك محاولة استيعاب القضايا النظرية الصادقة بهذه النظريات فى ابنيتهم النظرية ، ذلك فعله روبرت ميرتون ، وحاوله لويس كوزر فى إطار الاتجاه الوظيفى ، حيث أعطوا اعتباراً لقضايا الصراع والتغير ، وحاوله رواد المدرسة النقدية فى علم الاجتماع ، فأكدوا ان النظام الاجتماعى وليس الطبقة الاجتماعية ، هو الوحدة أو الكلية الشاملة التى يمكن ان ندرس بالنظر اليها أية وقائع جزئية .

وبغض النظر عن تقييمنا لكفاءة أى من هذه الاستراتيجيات كطريق للوصول الى النظرية العامة للعلم ، فإننا نعتقد ان الوصول الى النظرية العامة للعلم مرهون بضرورة مراعاة ثلاثة شروط . ويتمثل الشرط الأول فى ضرورة تجنب الجدل الأيديولوجى كمدخل لصياغة الالتقاء بين هذه النظريات المتعددة . ويرتبط بذلك ضرورة تجنب الجدل الأيديولوجى فى اطار مناقشة القضايا النظرية ، حيث قد يجهل البعض الحدود الفاصلة بين القضايا ذات الطبيعة العلمية للنظرية الاجتماعية ، وبين المتضمنات الأيديولوجية للنظرية ، واذا كانت الوظيفة الايديولوجية للنظرية هى احدى وظائفها - باعتبار اننا نتعامل مع المجتمع - فان من الاخطاء الفادحة ان نتناول النظرية باعتبارها كيانا كليا من خلال احدى زواياها الجزئية ، ونستطيع القول بأن اللعب على الوتر الايديولوجى للنظرية - باعتباره الوتر الرئيسى - كان احد الممارسات التى أعاقت نمو النظرية الاجتماعية على نطاق واقعنا العربى .

ويؤكد الشرط الثانى على ضرورة التزام النظرية بحركة متغيرات الواقع . رسواء كانت النظرية هى التى تتولى توجيه التفاعل الواقعى لترشيد حركته ، أو كانت تحاول فهم هذه الحركة . فإنها ينبغى ان تظل ملاحقة لحركة هذا الواقع وتفاعلاته المتجددة . بمعنى انه اذا كان الواقع يتجه الى الاستقرار فمن الخطأ ان نفرض عليه تصورات الصراع ، واذا كان

الواقع تسوده تفاعلات الصراع ، فمن المحظور ان ندعى انه يبحث عن التوازن ، علينا – نحن الباحثين – ان نكون اكثر امانة مع الواقع فتفاعلاته هى التى لها الأولوية ، وهى التى ينبغى ان تعكسها كافة القضايا النظرية . ان واقع النظام الدولى واقع متحرك الآن ، وكذلك واقع المجتمعات المحلية ، وعلى الأبنية النظرية ان تعكس – على الأقل – هذه الحركة ان لم تستطع ترشيدها وتوجيهها .

ويرتبط الشرط الثالث فى ضرورة الالتزام بأصول المنهج العلمى حين التعامل مع الأبنية النظرية . فإذا كان جهد المرحلة السابقة – من تطور النظرية الاجتماعية – قد تركز حول توفير القضايا والأبنية النظرية ، حيث لعب المنهج العلمى دوراً محوريا فى تنظيم المعطيات التى أفضت إلى تخلق هذه القضايا ، فإنه فى هذه المرحلة ينبغى ان يعيد فحص القضايا التى تشكل العناصر المكونة بالنسبة لمختلف النظريات ، بالنظر الى سياقات متباينة من الواقع ، بحيث يبقى على القضايا التى تعكس التفاعل الكائن فى غالبية هذه السياقات الاجتماعية . ذلك يعنى ان دور المنهج العلمى خلال هذه المرحلة يتمثل فى كونه يشكل المصفاه التى تنتقى من خلالها اكثر القضايا موضوعية . ولأن الواقع متكامل ، بغض النظر عن التناقضات الكامنة فيه ، فإننا نتوقع بناء نظريا متكاملاً وشاملاً سوف يكون الوعد المأمول بالنسبة لعلم الاجتماع ، والدالة التى تشهد على اكتمال تعميد هذا العلم بين العلوم .

وفى اعتقادى ان هناك قدر من المعوقات أو الممارسات التى اعاقت أوبالأصح عطلت سير النظرية فى هذا الاتجاه . من هذه المعوقات مثلاً تناول النظرية الاجتماعية من منطق ايديولوجى . فنظراً لأن النظرية الاجتماعية ، هى فى الغالب تعبير عن تفاعلات حدثت فى واقع اجتماعى محدد ، وهى قد تستخدم فى محاولة ادراك التفاعلات الكائنة بأى سياق اجتماعى – خاصة اذا كان متجانسا فى بعض جوانبه مع الواقع الذى جردت عن تفاعلاته – أو توجيه وترشيد هذه التفاعلات . ومن ثم فهى لابد ان تطور اتجاها نحو الواقع الحاضر ، الكائن ، وبنفس المنطق اتجاها نحو ماينبغى ان يكون . والخطأ كل الخطأ ان يغفل الباحث مسألة ان الواقع متحرك ومتجدد ، ويطرح متغيرات جديدة دائماً ، وان على هذه التفاعلات ان تنعكس بنفس القدرة فى بناء النظرية . إذا فعل الباحث ذلك فإنه يتخلى عن بعض علميته ليصبح مناصراً ايديولوجيا يرى الأفكار صادقة دائماً ، واذا تجاوز الواقع تصور النظرية فإن ثمة خطأ فى الواقع ينبغى ان يكتشف ، لتعاد المطابقة ثانية بين الواقع والنظرية . ولأن الواقع متحرك ، ومستمر فى التفاعل وفقا لقوانينه الخاصة ، فإن الباحث الذى يدعو لذلك يتجمد

ويجمد النظرية معه ، وكلما تحرك الواقع وطرح متغيرات جديدة ازدادت النظرية تخلفا عن متابعة حركته ، وازداد الباحث جموداً .

ويعتبر التأرجح الأخير الذى خضع له علم الاجتماع بين الاتجاه الوضعى والاتجاه المثالى ، أحد المعوقات التى أعاقت – بعض الشئ – نمو النظرية الاجتماعية نحو الاكتمال والنضج . ويتضح ذلك من الشوط الذى قطعه علم الاجتماع فى تاريخه الطويل . فمنذ نشأ التيار الأساسى لعلم الاجتماع بداية من سان سيمون وأوجست كونت وحتى الآن ، وهو يمارس ادراكه بالنظر الى المنطق الوضعى المستند الى منطق العلوم الطبيعية ، الذى يدرس الظواهر باعتبارها متماثلة الى حد كبير مع مادة العلوم الطبيعية ، وأنه من الضرورى اكتشاف القوانين التى تحكم تفاعل الظواهر الاجتماعية مع بعضها البعض . غير أنه بعد فترة طويلة من الجهد العلمى ، ادرك الباحثون فى علم الاجتماع أنه قد تراكم لديهم قدراً هائلاً من المعرفة وقدراً كبيرا من القوانين المتعلقة بهذه الظواهر ، إلا أنهم مع ذلك لم يحققوا درجة عالية من الضبط والتحكم فى المادة موضع الدراسة ، ومن ثم فهم فى غالب الأحيان عاجزون عن التنبؤ بأوضاع ظواهر الحاضر فى المستقبل . ومن ثم فقد تحول فى علم الاجتماع نمو المناهج الذاتية ذات الصلة بالفكر المثالى ، والتى تسعى الى فهم معانى الوقائع الاجتماعية سواء كانت أفعالاً أو انماط سلوك ، وهى الدعوة التى شكلت مثالية هيجل ، والفلسفة الوجودية ، وأفكار ماكس فيبر روافد لها ، وهى الروافد التى تبلورت أخيراً فى الفكر النقدى فى علم الاجتماع ، وهو الفكر الذى بدأته مدرسته فرانكفورت فى العشرينيات من هذا القرن .

الفصل الأول

التفكـــير العـــــلمى

طبيعـــته ومكـــــوناته

المحتويات

مقدمة

أولا : المعرفة العلمية طبيعتها وخصائصها

ثانيا : المنهج كعنصر فى نسق التفكير العلمى

ثالثا : طبيعة الحقيقة الاجتماعية

رابعا : الأيديولوجية والمعرفة العلمية فى علم الاجتماع

مقدمة عامة

نشأت النظرية الاجتماعية فى إطار عملية من المراجعة الشاملة ، التى كانت انعكاسا لعدة تغيرات واقعية ، أبرزها تحرر الانسان من القهر الواقعى الذى فرض عليه من قبل تحالف قساوسة الكنيسة مع أباطرة السياسة . بيد أن عملية المراجعة هذه كانت لها قضاياها موضع الاهتمام فى كل مرحلة . ففى مرحلة التنوير تميز البحث الاجتماعى بمحاولة استكشاف الطبيعة الأساسية للانسان ، ثم أكثر أشكال البناء الاجتماعى ملاءمة لدعم امكاناته بما يجعل سلوكه ايجابيا فى تشكيل واقعه المحيط ، وبما يخلق امكانية أن يكون ناتج العملية الاجتماعية التى أسسها لصالحه . غير أنه فى أعقاب الثورة الفرنسية ظهرت الاتجاهات النظرية العامة (المثالية الوضعية ، النفعية ، التجريبية) التى تميزت أنساقها النظرية من حيث طبيعة ادراكها للواقع ونظرتها اليه ، وإن استمر اهتمامها الأساسى مركزا حول الانسان الذى يتحمل عبء العملية الاجتماعية ، ومن هو الانسان الذى ينبغى أن يستفيد من نتاجها ؟ . هل على الانسان أن يواصل الثورة التى بدأت حتى يخلق البناء الذى يساعد على تفجير امكاناته . أو عليه أن يتوقف ليفرض النظام والاستقرار على الواقع الذى ينبغى أن يكون خاليا من الصراع والتناقض ؟ .

وفى قلب هذه المرحلة نشأت بدايات النظرية السوسيولوجية ، التى كان من المنطقى أن تبحث عن هوية خاصة . هل يكون بناؤها على غرار الأنساق الفلسفية التى تدرك الواقع من خلال مقولات منطقية مصدرها العقل ، أو عليها أن تحذو حذو العلوم الطبيعية فيكون الواقع هو مصدر قضاياها وتجريداتها النظرية ، برغم انها اذا فعلت ذلك فانها قد تقدم على مخاطرة معاملة الانسان كالمادة الجامدة ، تدركه من خلال سلوكياته الخارجية دون محاولة أن تسبر أعماقه للبحث عن المعنى الحقيقى الذى يدفع الى هذا السلوك أو ذاك . أو عليها ان تتبع الاستراتيجية الامبيريقية الفجة التى تجعل من الباحث كائنا سلبيا فى مواجهة معطيات الواقع ، تحت دعوى « دع الحقائق تتحدث عن نفسها » . ويمكننا القول انه وان كان لهذه المواقف الخلافية تاريخها البعيد فان استمرارها يشير الى عدم نضج علم الاجتماع ، والى افتقاد تنظيره القدرة على تحديد هويته .

غير انه وان تميزت النظرية السوسيولوجية فى اطار المناخ الأوربى بازدهار الميل نحو الارتباط بالأنساق الفلسفية من ناحية أو محاولة تمثل العلوم الطبيعية فى منطق الادراك والبحث من ناحية اخرى . فان انتقال علم الاجتماع الى القارة الأمريكية جعله يسقط فى أسر

البراجماتية والميل نحو الارتباط بالنزعة الامبيريقية . وقد استمرت هذه وضعية علم الاجتماع بعد انتقاله الى الولايات المتحدة الى أن أيقظته أزمة الثلاثينيات التى أكدت لديه عدم جدوى البحوث الامبيريقية ذات الادراك الجزئى . ونتيجة لذلك تخلق لدى علم الاجتماع ميل واضح بضرورة تأسيس نظرية شاملة تيسر ادراك الواقع وفهمه وحمايته ونشأت البارسونزية فى هذا السياق . واستمر الحال على هذا النحو الى أن وقعت أحداث عالمية وواقعية كثيرة ابتداء من الحرب الفيتنامية ، وحركات الشباب فى الستينيات ، وبعض جوانب التأزم التى أصابت الواقع الرأسمالى من الداخل ، والتناقض بين واقع البلدان النامية والمتقدمة . بحيث دفع ذلك كله الى ظهور الفكر النقدى الذى اتخذ الأنساق النظرية القائمة هدفا مباشرا لهجومه .

وفى هذه المرحلة التاريخية قدمت حلول كثيرة لمواقف خلافية متعددة . ورغم ذلك مازالت هناك بعض المواقف التى استمر الخلاف بشأنها . من ذلك الخلاف حول المفاهيم الأساسية ، ثم الخلاف حول الاهتمامات الرئيسية التى ينبغى أن تكون موضع تركيز العلم . بالاضافة الى عدم ادراك الدور الحقيقى الذى يمكن للنظرية أن تؤديه فى إطار بناء العلم من حيث ترشيد البحث الامبيريقى أو تجريد المعطيات القابلة للتراكم ، ماهو المدخل الى بناء النظرية ، ثم ماهى المحكات التى تحكم أداءها فى مختلف المجالات .

واذا كان علم الاجتماع قد تأسس فى أعقاب الثورة الفرنسية ضمن مجموعة العلوم التى تأسست فى أعقاب انتهاء الفلسفة الميتافيزيقية . فإن ذلك قد أدى إلى طرح أنساقا معرفية جديدة تختلف من حيث مكوناتها عن الأنساق الفلسفية السابقة عليها . ويكشف التشريح الداخلى لنسق التفكير العلمى عن وجود أربعة مكونات أساسية . المكون الأول هو المعرفة العلمية سواء اتخذت الطابع المنتظم فى شكل نماذج أو نظريات أو هى تقترب من ذلك . أما المكون الثانى فهو المنهج العلمى كمدخل موضوعى لادراك الحقيقة الواقعية بما يتضمنه من أدوات بحث لتلمس هذه الحقيقة . ثم تصورا محددا لطبيعة الحقيقة الواقعية التى تشكل مجال الاهتمام المحدد لأى من النظم العقلية إضافة إلى إستعراضنا للأيديولوجيا بإعتبارها عنصراً له تأثيره على طبيعة المعرفة العملية ، وفيما يلى سوف نتعرض لطبيعة وملامح كل من هذه المكونات الأربعة .

أولا : المعرفة العلمية ، طبيعتها وخصائصها

تشتق المعرفة العلمية طبيعتها من العلم كنسق ادراكى . والعلم هو المعرفة المنظمة بظاهرات الكون التى تم التوصل اليها وصياغتها باستخدام أسلوب أو منهج معين هو المنهج العلمى ، وهى ذات طبيعة تراكمية تمكن الانسان من التعامل بكفاءة مع البيئة الطبيعية [1] .

ويتميز العلم ، أو المعرفة العلمية بالتحديد ووضوح الأهداف والابتعاد عن مناقشة المسائل الفلسفية التى ليس لها أهمية امبيريقية [٢] . وسواء تشكلت المعرفة العلمية فى اطارات نظرية أو تخلفت عن ذلك فانها تتميز بالملامح الأساسية التالية :

(أ) تتميز المعرفة العلمية بأنها ذات طابع نسبى ، فالعلم لايعرف الصدق أو الحقيقة المطلقة [٣] . ذلك لأن القضايا التى يتم تجريدها عن واقع محدد قد لا تصلح لواقع آخر متباين بالنظر الى بعدى الزمان أو المكان ، ويستتبع ذلك أنها ذات ارتباط مباشر بالواقع لأنه أساس هدفها . وبذلك تشكل المعرفة العلمية نسقا مفتوحا من المعانى على عكس الأنساق المنطقية المغلقة التى تستمد صدقها من ذاتها . ومن ثم فالمعرفة العلمية هى وحدها القادرة على استيعاب متغيرات الواقع المتجددة والمتنوعة .

(ب) تتميز المعرفة العلمية بكونها ذات طابع موضوعى ، ويعنى ذلك أنها تتميز بالدقة والتحديد المعتمد على القياس ، وعدم التأثر بالتحيز الذاتى للباحث ، ولو أن هناك مداخل سوسيولوجية حديثة تؤكد على موضوعية المعرفة العلمية من خلال الاتصال الذاتى للباحث بالحقيقة موضع الاهتمام لإدراك معانيها . وهى بلا شك تختلف عن المعرفة الفلسفية من حيث كون الأخيرة ادراك ذاتى أساسا .

(ج) من خواص المعرفة العلمية أنها ذات طابع تراكمى ، اذ يعتبر العلم أكثر الانساق الفكرية اتاحة للتراكم ، حيث تبتكر المفاهيم الجديدة لكى تحل محل المفاهيم القديمة التى عجزت عن متابعة متغيرات الواقع المتنوعة ، يؤكد ذلك مايذهب اليه هوايتهيد بتأكيده أن العلم الذى يتردد فى نسيان رواده يفقد نفسه [٤] . وفى ذلك يختلف العلم عن الفلسفة التى تضم بناءات فكرية لاينفى أى منها الآخر وانما هى تتواجد فى نوع من التتابع التاريخى غير المتفاعل [٥] . فقد حلت المثالية محل الفلسفة المسيحية ، وظهرت الوجودية والماركسية ، ومع ذلك لم تلغ أى منها الآخر ، ومازال لكل منها روادها وأتباعها . ويختلف العلم فى ذلك عن نسق التفكير الدينى حيث يشكل الأخير مجموعة من القواعد المعيارية التى تأتى الى الانسان من خارجه .

(د) الى جانب ذلك تتميز المعرفة العلمية بالطابع الحتمى أيضا ، بمعنى أن ادراكها للواقعة يتم من خلال التركيز على العلاقات السببية لمكوناتها . ويعنى ذلك عمليا القول بأن سبب الظاهرة يكمن فى مجموعة الظواهر السابقة عليها ، أو الأسباب التى أدت الى وقوعها ، وتختلف الحتمية العلمية عن الحتمية الميتافيزيقية ، فى أن الأولى تبحث عن مسببات

الظاهرة فى الطبيعية – أيا كانت نوعيتها – بينما تبحث الحتمية الميتافيزيقية عن مسببات الظاهرة فيما وراء الطبيعة [٦] . وقد يختلف علماء الاجتماع فيما بينهم حول طبيعة هذه الحتمية ، هل هى حتمية جغرافية ، أو بيلوجية أو اقتصادية أو حتمية اجتماعية ، كما تذهب المدرسة الاجتماعية بريادة اميل دوركيم [٧] .

(هـ) بالاضافة الى ذلك تتميز المعرفة العلمية بأنها معرفة من الخارج ، فهى تدرك الظاهرة من خلال مؤشراتها الخارجية المرئية . وقد نقل علم الاجتماع هذه الخاصية عن العلوم الطبيعية . مثال ذلك دراسة دوركيم للانتحار عن طريق تحليل الاحصاءات كمؤشرات خارجية للظاهرة ، وتعنى الخارجية كخاصية للمعرفة العلمية ادراك الظاهرة من خلال مؤشراتها الخارجية . غير أنه برغم ذلك ظهرت مناهج حديثة فى علم الاجتماع تحاول أن تؤكد أن فهم الواقعة الاجتماعية ينبغى أن يتم من الداخل ، فهى فى ذلك تختلف عن مادة العلوم الطبيعية ، كالتفهم والمنهج الاثنوميثودولوجى ، ولو أنها تفتقد التقنين من حيث امكانية استخدامها فى اطار علم الاجتماع حتى الآن .

ثانيا : المنهج كمكون فى نسق التفكير العلمى

يعتبر المنهج هو الوحدة الثانية فى نسق التفكير العلمى ، ومن الواضح أن علم الاجتماع استعار منهجيته من العلوم الطبيعية التى شهدت تقدمات منهجية واضحة ابان نشأة العلم . وبرغم ذلك نجد أن علماء الاجتماع قد أنفقوا الوقت الكثير فى مناقشة المنهج واستخدامه فى دراسة الظاهرة الاجتماعية . وكما لاحظ هنرى بوانكاريه Poincare منذ نصف قرن مضى ، أن علماء الاجتماع أصبحوا كهنة فى مسائل المنهج ، ومن ثم فقد أعاقهم ذلك عن بناء النظرية فى مستوياتها العينية . ويؤكد روبرت ميرتون أن التركيز على المسائل المنهجية وتطويرها يعكس متاعب علم لم ينضج بعد [٨] . وكما يذهب علماء الاجتماع فان التركيز على المنهج وتطويره شكل عائقا أمام تقدم النظرية فى علم الاجتماع ، وتسعفنا فى هذا الصدد عبارة بوانكاريه حينما كان بصدد فحص مناهج علم الاجتماع اذ أكد (أنه العلم الذى يضم أكبر عدد من المناهج وأقل عدد من النتائج) [٩] .

ويكشف النظر الى المنهج فى علم الاجتماع عن تضمنه لثلاثة مستويات أساسية :

(أ) أما المستوى الأول فهو المنهج بمعنى منهجية Methodology ويقصد به ادراسة الأكثر تجريدا للأسس المنطقية لنوع معين من المعرفة أو أحد نظمها ، وهذا الاستخدام يعالج المنهج من وجهة نظر فلسفة العلم .

وبذلك فان المنهج بمعنى Methodology يحدد المبادئ الرئيسية لأى كيان نظرى ، ثم أسلوب سير هذا الكيان فى عملية البحث العلمى وهو بذلك يؤكد على النقاط التالية :

(١) افتراض أن الكيان النظرى له مبادئه وقضاياه الرئيسية التى توجب على أى بحث علمى مستندا الى هذا الكيان أن يشتق فروضه الرئيسية منه ، ثم بعد ذلك يستخدم المقولات الرئيسية للكيان النظرى فى عمليات الوصف والتحليل والتفسير والتنبؤ .

(٢) أن هذا الكيان يهتم بالجانب التفسيرى ، الذى يمثل الهدف المحورى للعلم ، بل هو الأساس المنطقى لوجود البحث العلمى ذاته ، فبالتفسير تختبر الأفكار التى بدأ بها الباحث ، وتضاف أفكار جديدة بحيث تؤدى هذه الاضافة وذلك الاختبار الى تأكيد النموذج التصورى أو مراجعته وتعديله أو رفضه تماما (١٠) .

(ب) أما لمستوى الثانى للمنهج فيتمثل فى المنهج بمعنى Methodologyical approach أى المدخل المنهجى ، وهو مستوى أقل من المستوى السابق . فاذا كان المستوى السابق يتعلق بالمبادئ الأساسية للاطارات النظرية فى علم الاجتماع فان هذا المستوى عادة مايستوحى هذه المبادئ فى اقترابه من الحقيقة الواقعية .. واذا كانت المداخل المنهجية تمثل اقترابات عامة من الحقيقة فإن كل منها يتضمن عادة عديدا من أدوات البحث ووسائله . ويشيع الغموض فيما يتعلق بهذه المداخل فى اطار النسق الفكرى لعلم الاجتماع وينعكس ذلك فى تحديد الكيانات الأساسية لهذه المداخل . فبينما نجد من يحددها بخمسة كالمنهج التاريخى، والمنهج الوصفى أو المنهج التجريبى ، ومنهج دراسة الحالة ، المنهج التتبعى ، أو المسح الاجتماعى (١١) ، نجد من يحددها أيضا بأنها المنهج التاريخى ، والمنهج المقارن والمنهج الوظيفى ، والمنهج الصورى والمنهج العلمى (١٢) . غير أن تحليل البناء المنهجى لعلم الاجتماع يكشف عن وجود ثلاثة مداخل منهجية أساسية هى المدخل أو المنهج التاريخى وهو الذى حل محل أسلوب الدراسة التطورية فى المرحلة التى سادت المرحلة غير المنظمة فى نظرية علم الاجتماع والذى يعتبر المنهج الجدلى أحد نماذجه ، ويعتبر تحليل مضمون الوثائق ، وتحليل آثار السلف ، والاحصاء وسائل لجمع البيانات التى يحتاجها هذا المنهج ويعتبر المنهج المقارن هو المدخل الثانى ، الذى نشأ بشكل فعال على يد كل من ماكس فيبر واميل دوركيم كوريث شرعى للاتجاهات التطورية والانتشارية معا ، وهو قد يستخدم النماذج المثالية كما عند ماكس فيبر أو النموذج المتوسط كما عند دوركيم بالاضافة الى امكانية استخدامه بالنظر الى أشكال أو عناصر بنائية عديدة . ويعتبر المدخل أو المنهج التجريبى هو

المدخل الثالث فى اطار علم الاجتماع ، وقد تمت استعارته بشكل تام تقريبا من العلوم الطبيعية، ويلجأ هذا المدخل الى وسائل منهجية كثيرة فى جمع معطياته منها الملاحظة ، والمقابلة ، واستخدام الاحصاء كأداة ، ووسائل القياس الأخرى .

(ج) وتعتبر أدوات أو طرق البحث Research Methods هى المستوى المنهجى الثالث ، وهى عديدة فى إطار علم الاجتماع . ويكشف البحث فى هذه الأدوات أن بعضها تمت استعارته من العلوم الطبيعية كالملاحظة ،بينما البعض الآخر أكثر ارتباطا بالعلوم الانسانية والاجتماعية جاءتها من الأنساق الفكرية السابقة عليها كتحليل المضمون مثلا .

وفى اطار دراسة البناء المنهجى لنسق التفكير العلمى تتبدى لنا ملاحظتان أساسيتان :

١ – أنه اذا نظرنا الى البناء المنهجى للعلم الاجتماعى وتكونه من ثلاث مستويات رئيسية فاننا نجد أنه كلما اتجهنا الى أعلى كان المستوى المنهجى أكثر خصوصية لأنه أكثر ارتباطا بالتوجيهات الأساسية أو القضايا الأساسية للعلم أو لبناءاته النظرية ، بينما نجد أنه كلما هبطنا الى أسفل حيث مستوى أدوات البحث سوف نجد أنه أكثر عمومية ومشاعية بين عديد من العلوم ، أو هى تشكل قاسما مشتركا بين كل ما ينتمى للبحث العلمى (١٣) .

٢ – أن التغير فى أى من مستويات البناء المنهجى لعلم الاجتماع لايعنى حدوث تغيرات مماثلة فى المستويات المنهجية الأدنى فتغير بعض الفرضيات العامة فى النظرية الماركسية أو البنائية الوظيفية لايعنى انتشار هذه التغيرات وترددها فى المستوى المنهجى الأدنى من خلال تغيرات تحدث فى اطار المنهج التاريخى أو التجريبى أو المنهج المقارن ، أو أن ذلك يؤدى الى تغيرات منعكسة فى أدوات البحث أو أسلوب تأسيسها . ويعنى ذلك افتقاد البناء المنهجى للعلم لأى نوع من الأحكام السبرنطيقى باعتبار أن قدرا كبيرا من هذه المنهجية تشارك فيه نظم عقلية عديدة .

ثالثا : طبيعة الواقعة أو الحقيقة الاجتماعية

تعتبر الواقعة الاجتماعية أيا كان نطاقها أحد المكونات الرئيسية لنسق التفكير العلمى ، ومن وجهة نظر الفكر الاجتماعى تتميز الحقيقة الاجتماعية بعدة ملامح رئيسية نذكرها بايجاز :

(أ) ففيما يتعلق بتخلق الحقيقة الاجتماعية ، حيث تناقش هذه القضية طبيعة العلاقة بين الانسان الفرد كحقيقة جزئية وبين المجتمع كحقيقة كلية شاملة . هل البشر هم الذين شكلوا نقطة البدء – بتجمعهم – لنشأة الحقيقة الاجتماعية ، ومن ثم فهم الذين يخلقونها ولو فعلوا ذلك على غير رغبة منهم . فى مواجهة ذلك هناك من يؤكد أن الفرد ليس سوى تكوين بيولوجى ، والانسان بشخصيته وبالمعنى الذى نراه ونتعامل معه انما هو خلق اجتماعى ، وأن البعد الاجتماعى الى جانب البعد الذاتى موجود فى داخل الانسان منذ الولادة ، ومن ثم فحالة الاجتماع لها أسبقيتها وسموها أيضا (١٤) .

ويرتبط بذلك هل الحقيقة الاجتماعية كالحقيقة الطبيعية منفصلة عن الفاعل وأفكاره ، أم أن ذلك افتراض خاطئ فيما يتعلق بقطاع كبير من الحقائق الاجتماعية . واذا تأكدت الصلة بين الحقيقة الاجتماعية والفاعل الذى خلقها أو الذى خلقته ، هل يمكن أن تمسك الحقيقة الاجتماعية عن الوجود اذا أمسك بعض البشر عن الاعتقاد فى وجودها ، ذلك لأن البشر يعجزون – ان لم يكونوا ذهانيين Psychotic – عن الامساك بوجود الحقيقة الاجتماعية طالما أنها موجودة ، غير أن جزءا من الحقيقة الاجتماعية يتمثل فى مجموعة الأفكار التى للبشر فى اطارها (١٥) . وقد نشأت فيما يتعلق بهذه الخاصية مواقف خلافية داخل النظرية العامة لعلم الاجتماع ، فى اطار مناقشة المداخل الفردية والاجتماعية للحقيقة الاجتماعية ومايبرز التطرف فيما يتعلق بهذه الخاصية تباين مواقف دوركيم ، وفيبر والسلوكيين .

(ب) وتعتبر علاقة الكل بالجزء فيما يتعلق بالحقيقة الاجتماعية من الخواص الأساسية المميزة لها ، فى اطار ذلك نجد موقفين متباينين . اذ يذهب فريق الى أن الظاهرة الاجتماعية تشتق خصائصها من خلال الظواهر الأشمل التى تشكل جزءا منها ، وفيما يتعلق بالكيانات الاجتماعية – المجتمعات ، التنظيمات ، الأسر – فاننا نجد أنها عبارة عن بناءات تتشكل من العلاقات بين العناصر ، غير أن كثيرا من خصائص هذه العناصر لايمكن فهمها منعزلة عن المشاركة فى الكل . فأنساق السياسة تتكون من القادة ، والأتباع والأحزاب

والمشرعين وما الى ذلك ، غير أنه لايمكن أن توجد أى من هذه العناصر بخصائصها خارج الأنساق السياسية [١٦] . فى مواجهة ذلك نجد موقفا آخر يؤكد أن الكليات تكتسب خصائصها من العناصر المشكلة لها ، فاذا نظرنا الى الكليات الاجتماعية فسوف نجد أنها تتكون من مجموعة الأدوار والمكانات التى تشغل وتنجز بواسطة البشر الأفراد ، أو مجموعاتهم . ومن ثم فمن الصعب ادراك الكليات الاجتماعية بدون الأفراد فى مكاناتهم الاجتماعية ، فى مقابل أن المراكز الاجتماعية للبشر لايمكن ادراكها بدون الكليات الاجتماعية . وذلك يرجع الى أن الظواهر الاجتماعية الى حد كبير نتاج عقلى . ولايعنى ذلك أن خصائص المجتمع تنبثق بصورة مباشرة عن السلوكيات والأفكار الفردية ، وانما هى تنتج من خلال التفاعل الاجتماعى حيث تتخلق خصائص جديدة غير خصائص المشاركين فى التفاعل [١٧] .

ولقد تباينت مواقف النظرية السوسيولوجية فيما يتعلق بخصائص كل من الكل والجزء ، وماهو مصدر اكتساب كل منهما لخصائصه ، وظل كما هو موقفا خلافيا لم تحسمه النظرية العامة لعلم الاجتماع .

(ج) ويعتبر ترابط ظاهرات الكون من الخواص الأساسية المميزة للظواهر الطبيعية ومن بينها الظواهر الاجتماعية ، ذلك لأن الكون فى ثباته واستمراره لايخضع للعشواء أو الصدفة ، وانما يخضع لقوانين دقيقة ينتظم بالنظر اليها ، وهى مقولة تمت استعارتها عن العلوم الطبيعية ابان نشأة علم الاجتماع ، وتشكل هذه الخاصية موضع اتفاق بين مختلف النماذج النظرية لعلم الاجتماع ، تستوى فى ذلك الوضعية أو المادية الجدلية . حيث يدعم كلاهما الترابط الذى يدعمه وجود علاقات سببية بين أطرافه . بيد أن الخلاف الرئيسى فيما يتعلق بهذه الخاصية يدور حول اتجاه السببية أساسا .

(د) أما الخاصية الرابعة التى تتميز بها الظاهرة الاجتماعية فتتمثل فى تميزها بالاستمرارية والثبات . فجميع ظاهرات الكون فى تغير دائم ، غير أن هذا التغير لايحدث على شكل قفزات مفاجئة أو أحداث عرضية عشوائية ولكنه يتبع نظاما ثابتا نسبيا [١٨] . وبرغم ذلك فقد نشأ خلاف حول هذه الخاصية أيضا يتعلق بالحالة الأساسية للوجود الاجتماعى هل هى الثبات أو التغير أو التوازن المتحرك على مايذهب بارسونز مثلا .

(هـ) أما الخاصية الأخيرة فتتمثل فى أن الحقيقة الاجتماعية ذات وجهين متقابلين عادة ، حيث نجد الصراع فى مواجهة التكامل كوجهين متضادين . وهناك يأس فى مجرد جمع هذه الجوانب فى اطار نظرى واحد ، وهو مايعنى ترك اختيار الحقيقة وفقا لهوى الباحث [١٩] ،

وهى ملاحظة قد نختلف معها لأن الخبرة بالحقيقة لايمكن أن تكون منقسمة على ذاتها وانما هى تبدو كذلك بالنظر الى تصور نظرى ما ، وهو بطبيعته ادراك جزئى لها مثلما يذهب فيبر ، الذى يؤكد أننا قد نتباين بشأن حقيقة ما لاختلاف الزواية التى ننظر من خلالها إليها . وهى بالطبع مسألة يحكمها الاطار النظرى للباحث .

ويمكن أن تعزى هذه المواقف الخلافية بشأن خصائص الظاهرة الاجتماعية الى عوامل أساسية ثلاثة :

١ – طبيعة التصورات التى تضمنتها مختلف النماذج النظرية بشأن الحقيقة الاجتماعية ، وهى تصورات ورثتها عن الاطر الفلسفية السابقة .

٢ – اختلاف منطق تناول الحقيقة الواقعية بالنظر الى سائر المواقف النظرية ، فبينما استعانت الوضعية بمنطق العلوم الطبيعية فى التناول ومن ثم كانت أميل الى تناول العناصر والتركيز على الرؤية الجزئية للحقيقة ، ارتبطت المثالية بالتناول الكلى والتحليلى للحقيقة موضع الدراسة .

٣ – تخلف البحث الاجتماعى بأسسه الموضوعية . أعاق الاتفاق حول الخصائص الأساسية للحقيقة الاجتماعية . فلم تجر البحوث حول المواضع الخلافية ، بحيث ييسر البحث حسم هذه القضايا لصالح اكتمال نسق التفكير العلمى وتطوره .

رابعا : الأيديولوجيا والمعرفة العلمية فى علم الاجتماع

تعتبر المعرفة العلمية عنصرا فى التراث الثقافى للجماعة أو المجتمع . وهى بهذا المعنى تؤدى فاعليتها على مستويين ، المستوى العلمى ، حيث تفاعل عناصر المعرفة العلمية مع بعضها البعض يدفع الى التراكم أساس التقدم أو التطور العلمى . اضافة الى ذلك فإن للمعرفة العلمية فاعليتها على مستوى الجماعة أو المجتمع ، فهى أساس التكنولوجيا التى تيسر حياة الجماعة ، وهى فى العلوم الانسانية اساس عقل الجماعة التى تستعين بها فى تشكيل تصورها لمختلف القضايا والتفاعلات سواء على المستوى الداخلى أو الخارجى . فى هذا الاطار فإن المعرفة الانسانية العلمية يمكن أن تلعب دورها فى خدمة أهداف الجماعة أو المجتمع ، ومن ثم تتحول الى افكار تخدم مصالح الجماعة ، وتصبح ايديولوجيا بالنسبة للجماعة . ذلك يعنى ان المعرفة العلمية والنظرية الاجتماعية ، يمكن أن تتضمن عنصرين ، العنصر الأول هو العنصر المعرفى (الأبستيمولوجى) وهو المتعلق بالمعرفة بإعتبارها مجموعة من الحقائق العلمية المتعلقة بنطاق

معين والظروف التى تحكم تخلقها وتفاعلها ، أما العنصر الثانى فهو الأيديولوجيا ، وهو الدور الذى يمكن أن تلعبه المعرفة فى تطوير حياة الجماعة أو فى تبرير مصالحها وأهدافها وسلوكياتها على الصعيد الداخلى أو الخارجى .

واذا كانت الايديولوجيا هى موضع اهتمام هذه الفقرة ، فإننا نرى ضرورة تحديدها بداية ، وهو التحديد الذى طرحت له تعريفات كثيرة . ومنذ البداية يشير مصطلح الأيديولوجيا الى نسق من الأفكار بشأن الظواهر ، ولاسيما ظواهر الحياة الاجتماعية ، أو هى طريقة التفكير المميزة لفرد أو طبقة أو أمة . وعند كونديلك يشير المصطلح الى علم الأفكار ، أى دراسة أصل الأفكار وطبيعتها ، وهى الأفكار التى تستمد فى مذهب كونديلك من الاحساس وحدة (٢٠)

ويؤكد هنرى أيكن أن مفهوم الأيديولوجيا عند ماركس وإنجلز – وهما اللذان اثارا الاهتمام بالأيديولوجيا – لايشمل نظرية المعرفة السياسية فحسب ، بل يشمل أيضا الميتافيزيقا والاخلاق والدين ، والالتزامات السياسية ، وأى تعبير عن المواقف المتعلقة بطبقة معينة (٢١) . بينما يعرف تالكوت بارسونز الأيديولوجيا بأنها نسق الأفكار الموجهة التى لها أصل امبيريقى ، تلك التى تمنح الانسان تفسيرا للطبيعة الامبيريقية للجماعة ، وللمواقف التى تواجهها ، والعمليات التى تقع فى الحالة الراهنة ، ثم الأهداف التى يتوجه نحوها الأفراد جماعيا ، وكذلك علاقة الجماعة بالأحداث المتوقعة فى المستقبل (٢٢) .

ويكشف التأمل الدقيق لهذه التعريفات ، أن الايديولوجيا تتعلق بكيان الجماعة ، وبأهداف هذه الجماعة ، سواء كانت طبقة أو أى تجمع آخر ، ولها فى العادة علاقة بمستقبل الجماعة ، ومن ثم يشارك فيها غالبية أعضاء الجماعة . وإرتباطا بذلك يحاول هارى جونسون Harry Johnson تحليل الايديولوجيا الى العناصر الأساسية التالية :

١ – فهى تضم الأفكار التى تلقى اتفاقا عاما بين الجماعة وتتعلق ببنائها ، والعمليات التى تقع بداخلها ، سواء تعلقت بالتفاعلات داخل الجماعة أو بتلك الأحداث التى تقع على الصعيد العالمى ولها صلة ببناء المجتمع .

٢ – الأفكار الشائعة التى تلقى اتفاقا عاما وتتعلق بتاريخ المجتمع .

٣ – التقويمات العامة التى تلقى قبولا عاما وتتعلق بالحقائق موضع الاتفاق

٤ – القيم والأهداف التى يتفق عليها أعضاء المجتمع ، بذلك تشكل الأيديولوجيا نسقا من المعتقدات والأفكار .

ذلك يعنى أن الايديولوجيا ترتبط وظيفيا بكيان الجماعة . إذ تعمل على تأكيد تماسكه ودعمه والحفاظ عليه والدفاع عنه فى مواجهة المجتمعات أو الجماعات الأخرى ذات الايديولوجيات المضادة . ذلك يعنى أن دورها يتعلق بتكامل المجتمع أو أى من جماعاته الفرعية . إضافة الى ذلك قد تحدد الأيديولوجيا للجماعة اتجاهها المعرفى والادراكى فيما يتعلق بأهداف معينة أو بوسائل تحقيق هذه الأهداف . إلى جانب ذلك تحتوى الأيديولوجيا على رموز الجماعة ، والارتباط بالأيديولوجيا يكون أقوى مايكون عادة فى الحالات التى تواجه فيها الجماعة صراعاً داخليا أو خارجيا (٢٣) . ذلك يعنى أن تصبح الأيديولوجيا احدى وسائل الجماعة فى تجاوز حالة الصراع هذه لتتمكن من تحقيق حالة التكامل والاستقرار من جديد .

ووفقاً للتحديدات السابقة فإنه من الممكن ان يكون بالمجتمع الواحد أكثر من أيديولوجية ، فكل جماعة لها ثقل اجتماعى ، أو وزن سياسى ، أو منظمة مهنية يكون لها ايديولوجيا محددة . وإلى جانب أن بالأيديولوجيا بعض الحقائق الامبيريقية التى تستند اليها ، فإن بها بعض العناصر العاطفية ، وكذلك عنصراً لاعقلانيا أو صوفيا كما هى الحال فى الدين كمكون من مكونات الايديولوجيا (٢٤).

وهناك مجموعة من الايديولوجيات الاساسية التى تعرف عليها الفكر الاجتماعى ، أبرزها الايديولوجيا الرجعية ، والمحافظة والثورية والراديكالية والمضادة .

وتعتبر الايديولوجيا الرجعية هى الايديولوجيا التى تعمل على استعادة النظام الاجتماعى الذى كان مسيطراً فى الماضى . إذ نجد أنه عقب كل ثورة ، تظهر مجموعة من البشر الذين يمثلون النظام المنهار ولهم مصالحهم فى إطاره ، تؤيد العودة الى النظام السابق الذى حطمته الثورة وأطاحت به ، وهم يعملون جاهدين على تحقيق ذلك .

وتعد الايديولوجيا المحافظة هى الايديولوجيا التى تحاول الحفاظ على ماهو كائن ، وتطالب الأفراد فى المجتمع بالخضوع له . ذلك يعنى أن الايديولوجيا المحافظة تبرر وجود النظم القائمة وتدافع عنها ، وبخاصة تلك النظم التى لها علاقة بالحكومة أو الاقتصاد أو البناء الطبقى وهى لعناصر التى تهاجمها عادة الايديولوجيا الثورية .

أما الايديولوجيا الثورية أو الراديكالية ، فهى تلك الايديولوجيا التى تعمل دائماً على مهاجمة النظام الاجتماعى وتسعى دائماً الى تغييره . ومن ثم فهى تقوم فى العادة بتوجيه النقد الى النظام القائم أو أى جوانبه ، ثم تحاول تقديم برنامج بديل لما هو موجود ، ومن ثم فهى تؤكد بشدة على الخضوع لهذا البرنامج الراديكالى ، وللأعضاء القائمين بالحركة الثورية (٢٥).

إلا أنه برغم أن الجماعة الثورية تعمل على الاطاحة بالنظام القائم أو أى جوانبه ، إلا أنها قد تبقى على بعض عناصر النظام القديم أو تحافظ على بعض القيم السائدة والموجودة فعلا ومن ثم فهى تشترك مع الايديولوجيا المحافظة فى الابقاء على هذه العناصر موضع القبول بين الاثنين

وهناك مايمكن أن نطلق عليه الايديولوجيا المضادة ، وهى تلك الايديولوجيا التى تبرز وجهة نظر الجماعة الرافضة للأيديولوجيا السائدة والنظام الاجتماعى القائم ، ولكن بدون أن تحاول هذه الايديولوجيا العمل على تغيير بناء المجتمع (٢٦) . وإن كانت هناك إحتمالية ان تعمل على ذلك اذا تحقق لها انتشار أو قبول جماهيرى .

وفيما يتعلق بعلاقة الايديولوجيا فى العلم فإننا نجد وجهتى نظر . وجهة النظر الأولى التى تؤكد أن الايديولوجيا لها صلة أو علاقة بالنظرية الاجتماعية ، وقد يصل تطرف هذا الموقف الى القول بأن الايديولوجيا قد لعبت دوراً محوريا فى بناء بعض النظريات ، بل كانت وراء بلورة كثير من القضايا النظرية . ويعتبر ارفنج زايتلن هو أفضل ممثل لوجهة النظر هذه ، حيث يعتبر الفكر الوضعى رداً على الفكر النقدى ، ومن ثم فهو يصور نظريات كل من دوركيم وفيبر وباريتو وموسكا باعتبارها مشروعات نظرية قامت للرد على النظرية الماركسية (٢٧) . ويحاول ألفن جولدنر دعم هذه الحقيقة بتأكيده أنه من الصعب أن تجد عالم اجتماع أبيض ذو شهرة يتجه للتدريس فى كليات الجنوب الأمريكى . ومايصدق على عالم الاجتماع ينسحب على النظرية الاجتماعية ، حيث يراها على أنها تزييف لما يتبدى فى الواقع . وفى العادة ينظر الراديكالى الشاب الى النظرية الاجتماعية وعلم الاجتماع الأكاديمى باعتبار أنهما يجعلان الحياة غامضة ، وأنهما يشكلان ايديولوجيا متميزة للحالة الراهنة ، تسعى للحفاظ عليها كما هى (٢٨) .

على خلاف ذلك نجد وجهة نظر مضادة ترى أنه من الضرورى الفصل بين العلم والايديولوجيا باعتبار أن كل منهما ينتمى الى نطاق مختلف . ويعتبر دون مارتندال من المفكرين الذين يؤيدون وجهة النظر هذه ، حيث يؤكد ان القضية التى تذهب الى ان علم الاجتماع كان فى البداية جزءاً من ايديولوجيا محافظة ليس هجوماً على علم الاجتماع أو دفاعاً عنه . وذلك يستند الى انه اذا قيل على نطاق ما بأنه ايديولوجيا ، فإن هذا النطاق يحرم من كونه علما . ذلك لأنه من طبيعة العلم أنه يمنح الموافقة النهائية على أى تعميم بالاستناد الى المحكات

الموضوعية التى يحتويها أى علم من العلوم ، ثم يؤكد أن بقاء علم الاجتماع ونموه مرهون بقدرته على صياغة معايير علمية ومهنية .

وبصورة أكثر وضوحاً يؤكد ريمون أرون على أنه من الضرورى أن نميز بين النظرية والمنهج العلمى المتصل بالواقع الاجتماعى من ناحية وبين الايديولوجيات أو التصورات الخاطئة والمتميزة والناتجة عن المواقف الطبقية التى تحرم الانسان من ادراك الحقيقة أو تحرفها أمام ادراكه من ناحية أخرى . ومن ثم يصبح من الضرورى أن نقيم إنفصالا بين أنماط التفسيرات العقلية المختلفة وأن ندرس علاقتها بالواقع الاجتماعى ، ثم يؤكد أنه لكى نتجنب الخلط والعمومية فإننا يجب أن نؤكد على مسألتين ، الأولى ، أن هناك مجالات يصل فيها الفكر البشرى الى الحقيقة الصادقة للجميع ، وليست تلك التى يعتقد صدقها على طبقة واحدة . والثانية . أن هناك مجالات يكون الانتاج العقلى فيها له قيمة بالنسبة لكل البشر فى كافة المجتمعات على حد سواء (٢٩) وهو يؤكد على العلم باعتباره انتاجاً عقليا من هذا النمط .

ذلك يعنى أنه فيما يتعلق بالعلاقة بين الايديولوجيا والنظرية الاجتماعية فإننا نواجه بموقفين . الأول يؤكد على التداخل بين عنصرى الايديولوجيا والابستيمولوجيا فى بناء النظرية ، بينما يؤكد الموقف الثانى على انفصال هذين العنصرين . ونحن أكثر ميلاً الى الموقف الثانى لمجموعة الاعتبارات التالية .

ويتعلق الإعتبار الأول فى عدم عضوية العلاقة بين الايديولوجيا والنظرية الاجتماعية كنظرية علمية ، وذلك لأنه حتى وان ترابط الاثنان معاً فى مرحلة من مراحل تطور النظرية أو الواقع الاجتماعى ، فإن الاتساق بين تصور النظرية وطبيعة الواقع لن تستمر طويلاً ، ذلك لأن الواقع متغير ، يفرض تغييرات على النظرية فى جانبها المعرفى ، ومن ثم يزيد الانفصال بين عنصرى الايديولوجيا والمعرفة .ذلك يعنى ان الاتحاد بين العنصرين وان وجد فى مرحلة معينة إلا أن العلم كنسق يمتلك من الميكانيزمات التى تؤدى فعاليتها الى إلغاء أية مكونات ايديولوجية لاتحمل طابعه .

ويتمثل الاعتبار الثانى فى التأكيد على أن الايديولوجيا تعتبر موقفا جماعياً يشترك فيه كافة أعضاء الجماعة أو أغلبيتها ، ويرتبط موقفهم على هذا النحو بتحقيق أهداف تتعلق بكيان الجماعة . وتتولى قيادة المجتمع دعمها فى شخصية الأفراد من خلال التطبيع الاجتماعى أو من خلال الدعاية والاعلان والاعلام ، وسائر وسائل الاتصال العامة ، بينما يتميز العلم بكونه يعبر عن نتاج خاص لمجموعة محدودة ومتميزة من الباحثين ، ويرتبط هذا النتاج ببناء العلم

وتراكم المعرفة العلمية . بمعنى أن نشاط العلماء يتناول عادة قضايا واقعية تحتاج الى فهمها فهما علميا . ومن ثم فنشاطهم على هذا النحو فنى ومتخصص فى غالبة ، غير أن هذا لايمنع من إمكانية استخدام معرفتهم هذه استخداما اجتماعيا ولصالح الجماعة . لايمنع أيضا أن تستخدم الايديولوجيا بعض الحقائق العلمية لتأكيد مواقفها ، بيد أن هذا لايعنى أن هذه القضايا قد تمت صياغتها لأغراض ايديولوجية .

ويذهب الاعتبار الثالث بأن الايديولوجيا قد تحرف احيانا الحقيقة الاجتماعية العلمية لخدمة وجود الجماعة أو أهدافها . على خلاف ذلك نجد أن الصدق المقنن هو أفضل معرفة يمكن الوصول اليها من خلال استخدام مناهج العلوم الاجتماعية أو العلوم الأخرى . ويكمن الاختلاف بين القضية العلمية والقضية الايديولوجية فى أن القضية العلمية تكون عادة أقل ثقة بنفسها ، ومعرضة دائماً للمراجعة والتعديل ، على خلاف ذلك نجد أن الايديولوجيا تنتقى الحقائق التى تؤكد فاعليتها . فالمعتقد الايديولوجى يبحث عن الحقائق التى تؤكد عى عقيدة اختارها ووافق عليها سلفا ، أما العالم فيرجئ الحكم حتى يستقصى – عن أرادة – عدداً كبيراً من الحقائق مايوافق فروضه ومايثبت زيفها .

وفى اطار الاعتبار الرابع فإننا نجد ان الايديولوجيا تستند عادة الى مجموعة من المعتقدات التى يتعصب المعتقدون لها . فمثلا تميل الايديولوجيات ، الراديكالية ، والمحافظة ، الى رؤية الأمور بصورة متطرفة (على أنها أما أبيض أو أسود) (٣٠) ، أما العلم فلا يمتلك هذا الحسم القاطع اذا ما تعرضت فروضه لدرجات متباينة من الاختبار لتأكيد زيفها أو صدقها . واذا كانت الايديولوجيا ذات رؤية مطلقة فإن العلم يؤسس قضاياه استنادا الى مقولة النسبية .

ويتعلق الاعتبار الخامس بوجود اختلاف آخر بين الايديولوجيا والعلم . فبينما تسعى آية ايديولوجيا – سواء كانت محافظة أو ثورية – الى فرض رؤيتها على النسق الاجتماعى ، لأنها بذلك تحدد مصالحه وتسعى الى تحقيقها أو تحافظ عليها ، فإن الباحثين لديهم التزام اساسى بالحقيقة الموضوعية ، وعلى حين يعمل المعتقدون الأيديولوجيون على اخضاع النسق الاجتماعى لمتطلبات الايديولوجيا ، نجد أن العلماء والباحثون يخضعون للعلم كنسق ادراكى ، ولامصلحة لهم سوى الكشف عن الحقيقة .

ويؤكد الاعتبار السادس على أنه برغم وجود الاختلافات التى عرضنا لها بين الايديولوجيا والعلم الاجتماعى ، بيد أن هذا لايمنع من وجود علاقة بينهما ينبغى ابقاء الضوء عليها . وتتمثل هذه العلاقة فى إمكانية استخدام قضايا العلم أو النظرية الاجتماعية استخداما

ايديولوجيا . إذ يمكن اعتبار أى قضية علمية إذا أمكن تأكيد صدقها أو زيفها علميا ، بالقدر الذى يمكن أن تكون قادرة فيه على وصف الارتباطات بين مكونات النسق الاجتماعى كما توجد واقعيا . إلا أن هذه القضية يمكن النظر إليها بإعتبار أن لها متواليات أو نتائج أيديولوجية ، إذا استخدمت لدعم أو تبرير جوانب معينة فى النسق الاجتماعى [٣١] . معنى ذلك أن القضية العلمية ذاتها ليس لها أى التزام ايديولوجى[٣٢] ، وإنما الالتزام يأتى من الشخص الذى استعان بها لكى يدعم موقفه . ذلك لأن القضية العلمية قد تصبح ذات دلالة ايديولوجية قدر مايمكن أن تكون لها دلالة علمية .

وإرتباطا بذلك نطرح ملاحظتين . وتتمثل الملاحظة الأولى فى أنه برغم الاختلافات التى عرضنا لها بين الايديولوجيا والعلم ، فإن ذلك لايمنع أن يكون للعالم أو الباحث موقف ايديولوجى ، يستوى فى ذلك علماء الاجتماع والعلوم الطبيعية . فمثلا جاليليو الذى ناضل ضد المناخ الدينى وايديولوجيا رجال الكنيسة ، وهو النضال الذى ارتبط بهجومه على الفكر الأرسطى الذى تدعمه الكنيسة ، كان فى هذه اللحظة يقوم بدور ايديولوجى الى جانب دوره العلمى ، إلا أنه فى ادائه لدوره يظل ملتزما اساساً بقضايا العلم ومتطلباته . وينطبق مثل هذا الموقف على كارل ماركس وتالكوت بارسونز ، فأنساقهم النظرية تتكون أساساً من قضايا ذات طبيعة علمية ، إلا أنهم قد يستخدمونها استخداما ايديولوجيا .

أما الملاحظة الثانية فتتعلق بإمكانية اتساع الفجوة بين ايديولوجيا الباحث العلمى ، وبين طبيعة النظرية العلمية التى تشكل منهجه فى تناول الواقع بالبحث والدراسة . فمن الممكن أن يتبنى الباحث ايديولوجيا راديكالية تتعاطف مع الطبقات الفقيرة وحتى مع البروليتاريا بالمعنى الماركسى ، ويسعى الى تغيير النسق الاجتماعى لتخليصه من التوترات والمعوقات الوظيفية التى يمتلئ بها ، وفى ذات الوقت يمارس بحثه العلمى بالنظر الى اطار التحليل الوظيفى فى علم الاجتماع ، وهو الموقف الذى اقترب منه روبرت . ك . ميرتون بصورة واضحة ومحددة .